
المنظومة
ALMANDUMAH



حول تاريخ الزي في المغرب الوسيط
ملاحظات أولية


الحسين فقادي*

يشكل تاريخ الزي المغربي نقطة تقاطع تاريخنا الاقتصـادي والاجتمـاعي والذهني... لكن لم تُنجز بعد كتابة تاريخية رصينة عن هذا الــزي(1). حيث تنم بيبليوغرافيا الدراسات في هذا المجال عن شبه جفاف يدعو إلى التساؤل لاسيما إذا ما قارنا، ليس بما أنجزه الأوروبيون في هذا الحقل، بل بما كتب عنه في المشـرق من دراسات عربية(2). وشكل مادة لقاءات علمية عالمية(3).

لـكن سنركز هنا على إثارة بعض إشكالية المصـادر المتعلقـة بـتاريخ الزي في المغرب الوسـيط، من خلال جملة ملاحظات أولية، لا تدعـي الإحاطـة بكل جوانب الموضوع، لكنها تسعى إلى أن يسترعي أهم مـا جـاء فيـها انتبـاه المهتمين، للعناية بهذا الجانب الذي يتيح إمكانية جلاء بعض مظاهر الحياة اليوميـة في المغرب الوسيط.

فما هي طبيعة المادة المصدرية خلال الفترة المعنية، وما مدى وفرتها ؟

مما لاشك فيه أن الملبوسات ذاتها – بنفس الشكل الذي كانت عليه – تعـد الوثيقة الأساسية، بيد أن مثل هذه النماذج الأصلية تكاد تكون منعدمة، عندما يتعلـق الأمر بأزمنة بعيدة كالعصر الوسيط. ولسد – نسبيا – هذه الثغرة قد يلجأ الدارسـون إلى الرصيد الإيكونوغرافي (Iconographie) الذي يحتوي مختلف الصور البشرية

* أستاذ باحث من الدار البيضاء.

(رسوم، لوحات، منحوتات...). وتساعد هذه اللغة البصرية على معرفة أشكال وألوان لباس الناس، على اختلاف طبقاتهم ووظائفهم، أو على رصد مدى تطور الألبسة عبر مختلف الأزمنة، ولتكتمل الصورة عن زي ما في فترة معينة، يمكن مقارنة ما جاء حوله في المصادر الإيكونوغرافية بما ورد عنه في النصوص التاريخية والأدبية كما فعل وعلى سبيل المثال A. HARMAND في كتابه عن الزي في زمن جان دارك JEANNE D'ARC حيث توصل إلى معرفة وافية للباس خلال الفترة المدروسة(4). لكن مثل هذه المادة المصدرية – التصوير الآدمي – قليلة جدا إن لم نقل منعدمة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالزي في العصر الوسيط الإسلامي. فالإسلام عندما ظهر حارب الأصنام والتماثيل وكرّه في التصوير والمصورين خوفا من عبادتها، لاسيما أن الناس كانوا قريبي العهد بهذه العبادة. واختلف العلماء في ذلك، فمنهم من قال: إن التحريم تحريم على الإطلاق، ومنهم من رأى أنه تحريم لعلة وإذا زالت العلة زال التحريم. وشاء المسلمون أن يحوروا الرسوم المحرمة إلى نقوش هندسية ونباتية غير محرمة، فزينوا بها المساجد، لكنهم لم يبلغوا في تزيينها ما بلغه المسيحيون في تزيين كنائسهم(5). فساعد هذا الفن التصويري الذي يمتاز به العالم المسيحي على إثراء دراساته التاريخية. في حين حال موقف الفقهاء من التصوير البشري دون تطور فن الرسم والنحت، فتوجهت طاقة الفنان الإسلامي الإبداعية إلى العمل الزخرفي، وهكذا أقصيت الصورة والتمثال عن المسجد لينزويا في أروقة وحدائق القصور وفي حماماتها أيضا.

لقد انطبع الموقف الإسلامي من فنون العالم المسيحي – كما عبر عن ذلك كرابار OLEG GRABAR – بالتردد والانزعاج حيث وجد التقدير والإعجاب إلى جانب الاستخفاف والغيرة(6). ومهما يكن فإن تأثير الفقهاء بخصوص التصوير الآدمي قد حال بالتالي دون وجود تراث إيكونوغرافي غني ومتنوع يغذي جهود الدارسين للزي خلال الفترة المدروسة. ومن هذه الحيثية تنبه بعضهم(7) إلى أن تاريخ الزي في العصر الوسيط الإسلامي – حيث ندرة التصاوير – لم يصل بعد إلى الدقة المعروفة عنه في تاريخ أوربا الغربية. وتعزى هذه الدقة بالطبع إلى وفرة المصادر التصويرية المدعومة بالنصوص لدى الأوروبيين. وإذا توخينا الدقة أكثر وجب الأخذ بعين الاعتبار اللباس وهو مصور، واللباس وهو مكتوب أي موصوف كتابة،وبين هذا وذاك واللباس الحقيقي أي بنفس الشكل الذي هو عليه في الواقع(8).

انطلاقا مما سبق ذكره، وإذا سلمنا بأهمية النماذج الأصلية للباس والمصادر الإيكونوغرافية، فإن الأمر يبدو صعبا، وقد يثني هذا العوز – في هذا النوع من الدراسات – الدارس عن تجشم مشاق الاستقصاءات المعرفية والمنهجية من أجل الوصول إلى نتائج تلقي الضوء على مادة الزي الوسيط.

فما هي المصادر المتاحة ؟وما مدى مساهمتها في معالجة موضوع الزي ؟ وما هي الصعوبة المنهجية والمعرفية التي تطرحها بعض هذه المصادر ؟ وهل يعكس ما جاء فيها حقيقة اللباس ؟
والذي يمكن أن نبدأ به – قبل ملامسة بعض جوانب الأجوبة – هو أن الاعتماد على المصادر المكتوبة يبقى عمدة الدارس للزي الوسيط، لذا يقتضي الواقع استغلالا مكثفا للتآليف الإخبارية والفقهية وكتب البدع والتراجم والمناقب ومؤلفات اللغويين والرحالة الخ.

الروايات الإخبارية

وتركز أولا على ما هو سياسي وعسكري وديبلوماسي داخل نسق كرونولوجي بسيط ورتيب، وتقصي ثانيا الجانب الاقتصادي والاجتماعي، وكل ما له علاقة بإنسان "العوام" في حياته اليومية، وذلك "للتضامن الوظيفي بين الدولة المركزية والكتابة الأرتونكسية" إن صح تعبير محمد أركون. فمادة اللباس في هذه الكتابة التاريخية التقليدية جد قليلة، بالمقارنة مع ذلك الركام الهائل من الأحداث السياسية والوقائع العسكرية، وإذا وجدت ثمة إشارة ففي الغالب من أجل إبراز ألبسة "الخاصة"، لاسيما شريحتها العليا التي تحرص كل الحرص على التميز بزيها(9)، أو عند عرض الصلات والهدايا، في شكل خلع وضروب من الملبوسات النفيسة. في حين لا نجد صدى للباس "العامة" اليومي في هذه الحوليات – إلا ما نذر – والتي لا تشير إلى أحوالها إلا في حالة انتفاضتها في سبيل الخبز أو الكساء(10) . باختصار توجد بين صفحات هذا الصنف من المصادر شذرات متفرقة تساهم بالنزر اليسير في تسليط بعض الضوء على موضوع الزي، خاصة زي "الخاصة" التي تتربع على أريكة السلطة والثروة.

مصادر التراث الفقهي

تزخر المكتبة المغربية بهذه المؤلفات الفقهية، حيث كان الفقه شديد الارتباط بواقع الناس ومشاكلهم الناشئة، فعليه كان مدار حياتهم اليومية(11). وإن كانت تلك المؤلفات تفيد بخصوص الزي إلا أنها تركز على مدى تطابقه للأحكام الشرعية (واجب، مندوب، مباح، مكروه، محظور،...) كما حددها مذهب مالك الذي انتشر في المغرب كله، وقلده تلاميذه لا في آرائه وحسب بل في ملبسه ومأكله ومشربه...(12) وأفتوا في مختلف وقائع الناس ومشكلاتهم الطارئة على ضوء ما ورد في التراث الفقهي المرتبط بالمالكية، لكن الاعتماد على تلك الفتاوي أو النوازل الواردة في هذا التراث – كمادة مصدرية لكتابة تاريخ الزي الوسيط - لا يخلو من صعوبات منهجية ومعرفية تعرقل استغلالها تاريخيا. ويمكن إجمال بعض تلك العوائق في إقصاء عنصري الزمان والمكان في معظم الفتاوي والنوازل، وأن نسبة مهمة منها تكون مفترضة أكثر مما هي واقعية، بالإضافة إلى كون كل من

المفتي أو المستفتي غُفلا من الاسم، دون إغفال ما تتطلبه من ثقافة فقهية شاملة مانعة. هذه إذن بعض الملاحظات السريعة والمقصود منها هو أن هذا النوع من المصادر، رغم أنه يفيد في معرفة جوانب من الزي الوسيط إلا أنه يتطلب المقارنة والتحقيق استنادا إلى مصادر أخرى للتخلص مما يشوبه من نقائص. وقد ينطبق هذا أيضا على كتب البدع التي تنفع بدورها في معرفة جوانب من لباس الناس، كما ترصده ضوابط الإسلام الأخلاقية وما كان يحدث من ابتكارات لأشكال غير مألوفة (موضة) تنفلت من عِقال المرجعية الفقهية لتلازم أهواء الناس(13).

التراجم

تجمع ذخائرها معلومات قيمة عن جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية في فترة زمنية معينة. وقد اهتم القدماء بكتابتها أيما اهتمام(14). وهي تركز في الغالب على حياة النخبة داخل المجتمع والدولة. ومن الملاحظ أن معظم كتب التراجم المتاحة لا يعطي وصفا مفصلا للباس، بحيث يُختزل في جمل مقتضبة تسقط في التعميم، من قبيل كان جميل الشارة حسن الهيئة والملبس، أو موحش الشكل مبتذل اللباس، مختصرة البزة الخ(15).

كتب المناقب

إذا كانت الروايات المناقبية التي تركز على خصوصيات الولي وسياحته وكراماته، لا تخلو من معلومات قيمة عن الجوانب الاجتماعية بما في ذلك مظاهر الزي زمن صاحب المنقبة، فإن المتون المناقبية تتطلب النقد التاريخي – أيضا – لما يتخللها من اختلاقات أسطورية تشوش على المادة التاريخية والاجتماعية المضمرة بين ثناياها.

كتب اللغة

تقدم تآليف اللغويين(16) – كالمعاجيم وغيرها – مادة علمية غزيرة عن الملابس وزمنها، وموطن نسجها، ونوع المادة المصنوعة منها، وأجزائها وصفاتها وألوانها وجنس لابسها (رجال، نساء، صبيان)، وإن كانت من نوع المقطع Coupé - Cousu أو ما لا يقطع Drapé ... إلى غير ذلك من المعلومات المفيدة عن اللباس الذي لا تخلو منه أشعار الشعراء وحيث تساهم بدورها في الكشف عن مظاهر الزي في فترات معينة(17) ومما ينبغي ملاحظته ونحن بصدد اللغة، أن البحث تصادفه صعوبة في معرفة أنواع الملابس بسبب تضارب أسماء بعضها ونجد لنفس الملبوس مسميات مختلفة، من الصعب معرفة ما يطابقها بالضبط. مثال ذلك ألبسة الرأس كالقلنسوة(18) والشاشية(19) والكلوتة(20) والطاقية(21) أو الألبسة الخارجية كالبرنس(22) وأخنيف(23) والسلهام(24) والسلهامة(25)... وقس على ذلك. والغالب على الظن أن كثيرا من مسميات اللباس كانت في الأصل محلية، فتناولتها أقلام الكتاب

حتى أصبحت مع مرور الزمان كأنها فصيحة، أو قد يكون ثمة اقتباس من لغات وحضارات مجاورة[26]. وهنا لابد من الاستفادة من الأدوات التي توفرها علوم اللغة كالفيلولوجيا وغيرها.

الرحلات والجغرافيا

تكتسي مؤلفاتها أهمية جمة في مجال البحث التاريخي لما تتناوله من استطرادات، تلمس مختلف أوجه التاريخ الحضاري، وحياة الناس اليومية، من غذاء ولباس ومسكن وعادات... باختصار كل الأمور التي تسكت عنها أو تغيبها الأسطوغرافيا الوسيطية. لكن تلك الكتابات لا تخلو بدورها من عدة نواقص، حيث يشترط على الباحث – أثناء التعامل معها – أن يكون يقظا حتى يتجنب كل خطأ أو انحراف قد يقع فيه الرحالة[27]، الذي قد ينقل حرفيا عن آخر فلا ينطبق بالتالي ما يقوله على القرن الذي يعيش فيه هو[28]. إلى غير ذلك من الثغرات والخلل في التوازن على مستوى المناطق والمحاور... ومن بين كتب الرحلات التي تتميز بوفرة مظاهر الزي نخص كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان[29]، ويعد في منتهى الأهمية، لما جاء فيه من وصف في غاية الصواب، أفاد في رسم مخططات الاستكشافات والغزوات الأوروبية إلى غاية القرن التاسع عشر[30]. ويفيد الدارسين للفترة الوطاسية في العصر الوسيط[31]. لاسيما أن معظم مادة الكتاب من مشاهدات المؤلف، الذي روى بالتفصيل مختلف جوانب الزي والزينة لدى شرائح متعددة من المجتمع على اختلاف طبقاته في المدن والبوادي.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لم يكن يقتصر على وصف ملابسها بل كان يقارن بعضها من حين لآخر بما يشبهها عند الإيطاليين. وهذا معطى يمكن استغلاله، إذا ما توفرت إمكانية البحث في مصادر الإيكونوغرافيا والوثائق المحفوظة في الأرشيفات الأوربية. ومع ذلك لا يمكن سد الثغرات التي يعاني منها تاريخ الزي في المغرب الوسيط، والذي ينتظر تعاضد جهود الدارسين وفي كل التخصصات التي تلغي الحدود بين التاريخ والعلوم الاجتماعية. فدراسات التاريخ الاقتصادي لزراعة القطن والكتان، وتربية الماشية ودودة القز، وصنع المنسوجات ومواد التجارة داخل البلاد ومع الخارج... كلها تساعد على الكشف عن معطيات من شأنها إماطة اللثام عن جوانب مهمة من تاريخ الزي. وعلى هذا النحو قد تنحو أيضا باقي الدراسات المتخصصة والتي تنفتح على هذا الجانب من تاريخنا الاقتصادي والاجتماعي والذهني...

خلاصة القول أنه يتعذر في ظل غياب النماذج الأصلية للملبوسات وندرة أو انعدام الوثائق التصويرية، معرفة بالضبط ما يطابق الأوصاف والإشارات الواردة عن الزي في المصادر المكتوبة، التي تعد عمدة الدارسين. فإذا كان لا محيد لهم عنها رغم نواقصها، فهل عملياتهم الحفرية في المصادر التاريخية

والمصادر الدفينة، واعتمادهم على مختلف الأدوات المعرفية والمنهجية التي توفرها العلوم الإنسانية والاجتماعية، كفيلة بكتابة تاريخ الزي في المغرب الوسيط ؟ ثم ما أهمية هذا التاريخ بالنسبة لحقول ثقافية أخرى كالمتاحف وفنون المسرح والسينما والرسم(32) وغيرها ؟

وإذا كان تاريخ الزي لم يحظ بالمكانة التي يستحقها ضمن الأعمال المتعلقة بتاريخ المغرب الوسيط، ألا يؤدي الاهتمام به إلى ذلك التراكم، الذي من شأنه أن يساهم بنصيب لا يستهان به، في كتابة تاريخ المغرب الحضاري الشامل، الذي ما زال ينتظر بحث الباحثين ودراسة الدارسين ؟

الهوامش :

1) – A. LAROUI : « Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocaine 1830 – 1912 », Paris , 1980 , p.30.

2) – نحيل القارئ على بيليوغرافيا الأزياء والحلي في المصادر العربية والمعربة والتي أعدها ع.ج.س. في مجلة التراث الشعبي ، ع12 ، السنة 6 / 1975 من ص. 289 إلى ص.320.

3) – انعقد المؤتمر العالمي الأول لتاريخ الزي في مدينة البندقية سنة 1952. ويحتل اليوم تاريخ الزي عبر العصور موقعه على شبكة الأنترنيت. أنظر : مقال ذ.إبراهيم القادري بوتشيش "البحث التاريخي والانترنيت". مجلة أمل : التاريخ – الثقافة – المجتمع. ع.21 ، سنة 2000 ، ص. 59.

4) – أنظر ما كتبه عنه فرانسوا بوشي François Boucher « Histoire du Costume en occident de l'Antiquité à nos jours » , Paris 1965 , p.5.

5) – أحمد أمين :"ظهر الإسلام" ج.II ، بيروت 1969 ، ص. 238 – 239.

6) – Oleg Grabar : La Formation de l'Art Islamique » Paris 1987, p. 117.

7) – D et J. SOURDEL « La Civilisation de l'Islam Classique « Paris 1983, p.278.

8) – Roland BARTHES : « Système de la mode » Paris 1967 , p. 13 SS

9) – أنكر يعقوب المنصور الموحدي على بعض خاصته ملازمة زي الخليفة (الغفائر الزبيبية والبرانيس المسكية (البيان المغرب – قسم الموحدين – الدار البيضاء 1985 ص. 187) واختص السلطان المريني بلبس البرنس الأبيض الرفيع دون غيره (القلقشندي : صبح الأعشى ج.5 بيروت 1987 ص.198).

10) – وافنا ابن صاحب الصلاة – باعتباره شاهد عيان – بوصف دقيق عن احتفالات أبي يعقوب الموحدي الذي " ميز الناس على جميع طبقاتهم" وأنعم على بعض الخاصة بالألبسة وقد تخللت عمليات التميز أحداث أبرزها أعمال العنف والنهب من "اختطاف الثياب واستلاب الجلباب ... مما أغضب الخليفة..."أنظر: كتاب " المن بالإمامة" بيروت 1987. ص.ص.215 – 216 – 345..

11) – محمد بن شريفة : مقدمة"مذاهب الحكام في نوازل الأحكام" بيروت 1990 ص.9

12) – أحمد بكير محمود، مقدمة "ترتيب المدارك... للقاضي عياض" الجزء الأول ، بيروت 1967 ، ص.9 وعن زي وزينة الإمام مالك أنظر ن.م صفحة 113 – 114.

13) – يعد كتاب "المدخل إلى تنمية الأعمال... والتنبيه على بعض البدع والعوائد" لابن الحاج نزيل القاهرة والمتوفى بها عام 737هـ ، من أهم مؤلفات البدع التي رصدت مظاهر الزي وابتكاراته، لكن ثمة تداخل بين ما كان يعاينه المؤلف من ظواهر في مصر وما كانت تختزله ذاكرته من مظاهر البيئة المغربية.

14) — عن أهمية هذا التراث يقول بوم Von Grune Baume :"إن مجموعة كتب التراجم التي أنتجها المســلمون لشـيء يدعــو إلى الدهشة والإعجاب، لكثرتها ودقتها، وما جمعته من مادة رائعة، وأن علماء الغــرب فــي العصور الوسطى ليس لديهم ما يقارن بنتاج معاصريهم من العرب في هذا الميدان" أورده ذ. أحمد شلبي في "التربية الإسلامية" الطبعة 7 القاهرة 1982 ص.32 — 33.

15) — كتب ابن الخطيب في ترجمة ابن خلدون أنه :"... وقور المجلس، خاصي الزي" (الإحاطة. تحقيق ع.عنان، المجلد الثالث ، القاهرة 1975 ، ص. 497).

16) — نحيل القارئ على السفر الرابع من كتاب "المخصص لابن سيده، بيروت د.ت. واهتم المستشرقون بالملابس العربية حيث أصدر رينهارت دوزي معجمها.

R. DOZY : « Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes » Beirut (s.d).

17) — اهتمت بعض الدراسات الأدبية بموضوع اللباس في الشعر، نذكر على سبيل المثال كتاب يحي الجبوري "الملابس العربية في الشعر الجاهلي" دار الغرب الإسلامي بيروت 1989.

18) — ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف" تحقيق ذ. أحمد التوفيق ، الرباط 1997 ، ص. 138 — 391.

19) — نفس المصدر ، ص ص .216 — 356 — 367.

20) — عبد الواحد المراكشي :"المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، بيروت 1998 ص. 217.

21) — العباس بن إبراهيم :"الإعلام بمن حل مراكش..." ج. 9 ، الرباط 1980 ، ص.50. ترجمة ابن حرزهم (ت.559هـ).

22) — ابن الزيات.م.س. ص.110 — 111 — 216 -257 - 283.

23) — معلمة المغرب ، الجزء الرابع، ص. 1197.

24) — عبد القادر زمامة:"الوجادات" مجلة دعوة الحق ، ع 5 أبريل 1969 ، ص.80.

25) — ابن الزيات ، م.س. ص. 328.

26) — توجد أسماء ملابس متشابهة بين العربية ولغات قديمة كاللغة المصرية القديمة (الفرعونية) وخير مثال ما كتبه عالم الآثار المصـــري أحمد كمال.

A. Kamal : Les noms des vêtements, coiffures et chaussures chez les anciens Egyptiens comparés aux noms arabes. Le CAIRE B.I.E 1917.

27) — محمد المنوني:"المصادر العربية لتاريخ المغرب"الجزء الأول ، البيضاء 1983 ، ص.18.

28) — عبد الله العروي:"مجمل تاريخ المغرب" الجزء الثاني ، البيضاء 1994 ، ص. 49.

29) — الحسن الوزان:"وصف إفريقيا"، جزءان، ترجمة ذ.محمد حجي وذ. محمد الأخضر ، الرباط 1980

30) – A.LAROUI : L'Histoire du Maghreb » t II , Paris 1975, p.8

31) — ثمة خلاف حول تحديد هذا العصر، فالمرحوم المنوني لا يدخل هذه الفترة في العصر الوسيط بل يعتبرها بداية البداية للعصر الحديث بالمغرب (م.س. ص.118)، بينما يرى دالشي G. DALCHE أن "مدلول العصر الوسيط أكثر مناسبة لتاريخ أوروبا". لكنه يقبل به موقتا عندما يتعلق الأمر بتاريخ المغرب (مجلة البحث العلمي ع 10 أبريل 1967 ، ص. 116)، في حين يمتد العصر الوسيط في أوروبا حسب جاك لوكوف J.LEGOFF إلى غاية القرن 18 أي إلى فجر الثورة الصناعيـــة (G. Duby – B. Germek : « Passions communes" Paris 1992, p.34)

32) — ملاحظة لابد من الإشارة إليها بخصوص أهمية نشر رسوم ورسيمات (Croquis) أنواع اللباس التــي لا غنى عنها في تحليـل الموضوع ومن أجل تدعيم المتن. حول القيمة الإجرائية والجماليــة لهــذه الوسائــل التوضيحية أنظر :

Jean Besancenot :" Costumes du Maroc" Edit Diffusion , Rabat 1988.